

مذكرات تأمل – الجزء الأول

Ver **Draft** (B) 27th Oct

خواطر ومذكرات

بقلم

مؤمن عبد الودود

الجزء الأول

قواعد المعرفة وبحث العقل عن الحقيقة

الجزء الثاني

أصول الإيمان ومعرفة الله

الجزء الثالث

تدبر ووقفات مع آيات القرآن

خواطر في زمن الفتن.. بحثاً عن الحقّ
رحلة عقل يبحث عن الحقّ – الجزء الأول

فهرس المحتويات

بين يدي القارئ – خارطة الطريق في رحلة الفهم واليقين

المقدمة – كيف نبحث عن الحقّ؟

المسلّمات الكبرى في الفكر الإنساني: الفصل الأول

النظرية والشك واليقين: الفصل الثاني

البنية النفسية وتكوين المعتقدات: الفصل الثالث

المرجعية العقلية وتشكل الفهم: الفصل الرابع

فلسفة الإيمان والعقل في ضوء النسبية: الفصل الخامس

معرفة الله – أشرف العلوم وأعظمها: الفصل السادس

الغاية من الوجود والعبودية لله: الفصل السابع

القضاء والقدر وسنن الله في الخلق: الفصل الثامن

ختام وتأمل وجداني: الفصل التاسع

صفحة المراجع المختصرة

خريطة الجزء الأول

كتاب خواطر في زمن الفتن

الفصل الأول – المسلمات الكبرى في الفكر الإنساني

القواعد الأولى التي يجتمع عليها العقلاء عبر العصور:
عدم التناقض، الثالث المرفوع، السببية، الغائية، الكفاية العقلية،
الواقع الخارجي، قابلية المعرفة، القيم الفطرية، استحالة المصادفة، والاتساق الكوني

الفصل الثاني – النظرية والشك واليقين

رحلة العقل في البحث عن الحقيقة بين الشك المنهجي واليقين الإيماني،
مراتب اليقين في القرآن،
الفرق بين الظن واليقين،
حدود العقل في العلم،
وتكامل العلم والإيمان في الوصول إلى الطمأنينة

الفصل الثالث – البنية النفسية وتكوين المعتقدات

كيف تتشكل المعتقدات في النفس من الفطرة والتربية والخبرة والعاطفة،
العلاقة بين العقل والقلب والنفس،
أثر النية في الفهم،
وأهمية تركية النفس لصفاء الإدراك والبصيرة

الفصل الرابع – المرجعية العقلية وتشكل الفهم

كيف تُوجّه المرجعيات المسبقة فهم الإنسان للحقائق،
مصادر تشكيلها،
أخطر الانحيازات الفكرية،
دور النية في صفاء الفهم،
وكيف يتكامل العقل مع الوحي دون تعارض

الفصل الخامس – فلسفة الإيمان والعقل في ضوء النسبية

النسبية بين الإدراك والحقيقة،
حدود العقل الإنساني،
الفرق بين النسبية الفيزيائية والفكرية،
تكامل الإيمان والعقل،
وتواضع المعرفة أمام الخالق جلّ جلاله

الفصل السادس – معرفة الله: أشرف العلوم وأعظمها

العلم بالله أصل العلوم،
أثر المعرفة في القلب،
الفرق بين العلم والوحي،
قدسية فهم كلام الله،
والطريق إلى الطمأنينة من خلال معرفة الله وأسمائه وصفاته

الفصل السابع – الغاية من الوجود والعبودية لله

الجواب القرآني عن سؤال الوجود،
معنى العبودية وكرامتها،
العبودية بين الجلال والجمال،
منهاج الحياة في ضوء الاستخلاف،
وسرّ السعادة في التسليم لله.

الفصل الثامن – القضاء والقدر وسنن الله في الخلق

العلاقة بين علم الله ومشئئة العبد،
السنن الإلهية في الكون،
الجزاء من جنس العمل،
حكمة البلاء،
وكيف يُورث الإيمان بالقدر طمأنينة القلب وعدل الرؤية

الفصل التاسع – ختام وتأمل وجداني

تأمل في رحلة البحث عن الحق،
التوازن بين العقل والوحي،
من المعرفة إلى العبودية،
والعودة إلى الله بعد إدراك الغاية الكبرى
أنّ العلم والإيمان طريقٌ واحد إلى النور

الخلاصة العامة

إنّ هذا الجزء الأول هو مقدّمة الرحلة في مشروع خواطر في زمن الفتن.. بحثاً عن الحق،
وهو تأسيسٌ للعقلية المؤمنة التي تجمع بين التفكير العميق واليقين الصادق،
ليكون ما بعده من الأجزاء امتداداً طبيعياً في فهم العقيدة،
وتدبّر أسماء الله وصفاته،
وسنن الهداية والابتلاء في ضوء القرآن الكريم

بين يدي القارئ

بين يدي القارئ

هذا الكتاب ليس بحثاً أكاديمياً جامداً، ولا تأملاً عابراً في قضايا الفكر، بل هو محاولة صادقة لرحلة عقلٍ يبحث عن النور، وقلبٍ يفتش عن الطمأنينة رحلةً يتجاوز فيها التفكيرُ مع الإيمان، ويتعانق فيها العلمُ مع البصيرة، بعيداً عن التعصب، وبمناى عن الجدل العقيم

لا يدّعي صاحبها امتلاك الحق، بل يسعى أن يقترب منه بتجردٍ وصدق، مستنداً إلى نور الوحي، ومستأنساً بعقولٍ أخلصت في طلب الحقيقة عبر العصور: إنها بداية مسيرٍ طويلٍ نحو سؤالٍ واحدٍ قديمٍ ومتجددٍ: كيف نعرف الحق ونسير إليه بثباتٍ وطمأنينة؟

ولئلا يتيه القارئ في بحر الأفكار، رُسمت له خارطة طريقٍ واضحةٍ تُرافقه خطوةً بخطوة تبدأ من المسلمات الكبرى التي اتفقت عليها العقولُ السليمة، ثم تمضي إلى النظرية والشك واليقين، وتغوص في بنية النفس وتكوين المعتقدات، وتستعرض كيف تتشكل المرجعية العقلية ويتوازن الفهم، لتصل في النهاية إلى أشرف الغايات: معرفة الله، والعبودية له، وفهم سننه في الخلق والقدر.

إنها رحلة تبدأ من العقل لتنتهي عند القلب، ومن التأمل لتثمر السكينة، ومن الفكر لتستقر عند اليقين، فهذه الصفحات ليست للعقل وحده، بل للوجدان أيضاً، لأن الحق لا يُدرك بالعقل البارد ولا بالهوى المنفلت، بل بعقلٍ متجردٍ وقلبٍ منطهرٍ يطلب وجه الله وحده

المقدمة

كيف نبحت عن الحق؟

الحمد لله الذي هدانا لمعرفة أنفسنا قبل أن نطلب معرفة غيرنا، والصلاة والسلام على من أنزل عليه القرآن هُدىً ورحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين... أما بعد

إنَّ طريقَ المعرفة لا يُهتدى إليه بالجدال ولا يُثمر بالهوى والعاطفة، بل بالإنصاف والتجرد، وبمنهج يعيد للعقل توازنه وللنفس صفاءها. وهذه الصفحات ليست بحثاً فلسفياً مجرداً ولا عرضاً لمعارف متفرقة، بل محاولة صادقة لترتيب الطريق: نبدأ ممّا اتفقت عليه العقول السليمة من مسلماتٍ كبرى، ثم نمضي لفهم كيف تتكوّن المعتقدات داخل النفس تحت أثر الفطرة والعقل والتجربة، حتى نبلغ الغاية الأسمى: معرفة الله كما وصف نفسه، وفهم سننه في الخلق، وعدله في القدر، ورحمته في التدبير.

العلمُ الحقُّ لا يُعارض الإيمان، كما أنّ الإيمانَ الحقَّ لا يخشى العلم؛ العلمُ يُجيب عن كيف تعمل الأشياء، والوحي يُجيب عن لمانها وُجدها. فالأول يكشف الأسباب، والثاني يمنح الغايات، ومن جمع بين نور العقل وهدى الوحي استقام له ميزانُ الفكر واطمأنَّ له ميزانُ القلب.

ولن نخوض في غيبٍ لم يأت به النص، ولن نُقحم الروح في تمثيلٍ حسّي لا يليق بجلال الخالق؛ بل نمضي حيث يأذن البرهان ويهدي القرآن ويقودنا الصدق إلى مواضع النور.

وما في هذه الصفحات إلا تذكرة لمن أراد أن يراجع نفسه ويستعيد توازنه بين فكره وإيمانه؛ فإذا بلغ العقلُ مُنتهاه وسكنت النفسُ بذكر مولاها كان تمامُ النعمة أن يقول العبدُ في نهاية الطريق: (رَبِّ رُدْنِي عِلْمًا)

الفصل الأول

المسلّمات الكبرى في الفكر الإنساني

(The Universal Axioms of Human Thought)

منذ أن وُجد الإنسان على هذه الأرض، وهو يبحث عن الحقيقة: من أين جاء؟ ولماذا وُجد؟ وإلى أين يسير؟ وقد اختلفت الإجابات، لكنّ نقطة البداية بقيت واحدة: لا يمكن لأيّ فكرٍ أو علمٍ أو منهجٍ أن يقوم دون “مسلمّاتٍ كبرى” يتفق عليها العقلاء، تكون بمنزلة الأرض الثابتة التي يبدأ منها التفكير

إنّ هذه المسلمّات هي الأبجديات الأولى في طريق المعرفة، مثلما يحتاج كلّ بناءٍ إلى أساس، وكلّ علمٍ إلى مقدّماتٍ لا تحتاج إلى برهانٍ؛ لأنها بديهيةٌ في ذاتها. وهي القواعد التي اتفق عليها العقلاء في كلّ زمانٍ ومكان، مهما اختلفت أديانهم وثقافتهم

ولذلك فهي ليست اختراعاً فلسفياً جديداً، بل ميراثُ العقل الإنسانيّ منذ فجر التاريخ. وكلّ محاولةٍ للتفكير من غيرها هي كمن يبني في الهواء أو يبرهن على النور بظلمة

تمهيد .

هذه المبادئ ليست نظرياتٍ فلسفيةٍ مجردة، بل هي ما يمكن أن نسمّيه “الفطرة العقلية” التي فُطر عليها الإنسان قبل أن تُصاغ في كتب الفلاسفة والعلماء. إنها البديهيات الأولى التي يبني عليها كل عقلٍ سليم حكمه وفهمه، والتي اتفق عليها البشر دون اتفاقٍ مسبق، لأنها مغروسة في أصل الوعي الإنساني

، أي “الحسّ الفطريّ السليم” الذي يدرك به الناس Common Sense وهذا ما يُعرف اليوم في اللغة المعاصرة باسم الحقائق الأولية دون برهانٍ طويل، فيفترقون به بين الصواب والخطأ، والمعقول واللامعقول

إنها “المسلمّات” و”الأبجديات” التي لا يختلف عليها العقلاء، وهي الأساس الذي يقوم عليه كلّ فكرٍ علميٍّ أو فلسفيٍّ أو دينيٍّ صحيح

، فمع أنّها أبجديات Common Sense is not common ومن الجدير بالذكر — أو للأسف كما يُقال — أن بدهيات، إلا أنها تتطلّب قدرًا من الوعي والتأمّل، لأنّ الخطأ في فهمها شائعٌ بين الناس والعامّة، رغم وضوحها في أصلها

المبادئ العشرة للمسلّمات الكبرى في الفكر الإنساني .

1. مبدأ عدم التناقض (Principle of Non-Contradiction)

الحقيقة لا تقبل الازدواج. لا يمكن للشيء أن يكون صادقاً وكاذباً في الوقت نفسه من الجهة ذاتها. فلو قال أحدهم "النار باردة"، فإن العقل يرفض هذا الحكم لأنه يناقض نفسه. وقد عبّر أرسطو عن هذا المبدأ بقوله: "إنكار مبدأ عدم التناقض يجعل القول والكلام بلا معنى". ولذلك فهو أساس المنطق والعقل، وهو الذي يحفظ ميزان الفهم من الاضطراب.

2. مبدأ الثالث المرفوع (Law of the Excluded Middle)

وهو مبدأ نفي الوسط بين النقيضين. فإما أن يكون الشيء موجوداً أو غير موجود، ولا ثالث بينهما. قالوا: "تكون أو لا تكون". فالحقيقة لا تعرف المنطقة الرمادية بين النفي والإثبات. وهذا المبدأ هو الذي يميّز بين الحقيقة والظن، ويمنع تداخل المفاهيم في الحكم العقلي.

3. مبدأ السببية (Principle of Causality)

كلّ حادثٍ له سبب. العقل لا يطمئن إلى شيءٍ وُجد بلا سبب، بل يبحث دائماً عن العلة التي أوجدته. فإذا رأى الإنسان دخاناً، علم أن وراءه ناراً، وإذا سمع صوتاً، أدرك أن له مصدرًا. وهكذا تُبنى سلسلة الفهم في نظامٍ من الأسباب "والمسببات. وهذا ما عبّر عنه العلماء بقولهم: "العقل لا يقبل المصادفة المطلقة".

4. مبدأ الغائية (Principle of Finality / Teleology)

كلّ حركةٍ في الوجود مأمورةٌ بمعنى، وكلّ نظامٍ له غاية. لا شيء في الكون بلا هدف، بل كلّ ما في الوجود يجري بحكمةٍ نحو غايةٍ أرادها الخالق. ولهذا قال الحكماء: "إذا غابت الغاية، ضاع المعنى". وهذا المبدأ هو الذي يمنح الوجود بعده الأخلاقي والإنساني.

5. مبدأ الكفاية العقلية (Principle of Sufficient Reason)

لكلّ ما وجد سببٌ كافٍ لوجوده. فليس في الوجود عبث، ولا في الخلق خلل. ومن لم يُدرك السبب، فقصوره في الفهم لا ينفي وجوده. قالوا: "إذا وُجد الشيء، فلا بد أن يكون هناك ما يفسر وجوده تفسيرًا كافيًا". وهذا المبدأ أصلٌ في كلّ استدلالٍ علميٍّ وفلسفيٍّ ودينيٍّ.

6. مبدأ الهوية أو الذاتية (Principle of Identity)

الشيء هو هو، لا يتبدّل إلا بتبدّل ذاته. فالذهب ذهب، والماء ماء، والحقّ حقّ، لا يغيّره اسمٌ أو تأويل. وهذا المبدأ يحفظ المعاني من التميع، ويمنع الخلط بين المتناقضات.

7. مبدأ العقلانية (Principle of Rationality)

العقل هو الأداة التي يُدرك بها الإنسان المعاني ويصل بها إلى المعرفة. فمن عطلَّ عقله، عطلَّ إنسانيته، ومن جعل الهوى مرجعيته، أطفأ نور الفطرة في داخله. العقل ليس خصمًا للوحي، بل هو وسيلته للفهم والتدبُّر، ولهذا كان أول خطابٍ في القرآن: ﴿اقْرَأْ﴾، دلالةً على أن طريق الإيمان يمرُّ عبر العقل والبصيرة.

8. مبدأ الثبات والنظام (Principle of Order and Consistency / Uniformity of Nature)

الكون قائمٌ على نظامٍ دقيقٍ وثابتٍ لا يختلُّ. الشمس تشرق من المشرق، والليل يعقب النهار، والماء يسقي الأرض فينبت الزرع. فالقوانين التي تحكم الكون ليست فوضى، بل سننٌ ثابتةٌ تشهد بوحدة الخالق وحكمته. وهذا المبدأ هو الذي يقوم عليه العلم التجريبي في كلِّ زمانٍ ومكان.

9. مبدأ التناسب والانسجام (Principle of Proportion and Harmony)

كلُّ ما في الكون من أجزاءٍ يرتبط بعضه ببعضٍ بعلاقةٍ دقيقةٍ من التوازن. فالنظام الكوني يشهد على وحدة المصدر، والتكامل بين الجزئيات والكليات. فإذا اختلَّ التناسب، فسدت الصورة، وإذا غاب الانسجام، فقد المعنى جماله.

10. مبدأ الأخلاق والضمير (Moral and Conscience Principle / Ethical Realism)

الخير محبوبٌ بالفطرة، والشرُّ مكروهٌ بالفطرة. وما كان كذلك فهو دليلٌ على وجود قانونٍ أخلاقيٍّ مزروعٍ في النفس البشرية قبل القوانين الوضعية. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: 7-8). فمن اتبع فطرته، اهتدى، ومن غفها بالهوى، ضلَّ الطريق.

تأمل وخاتمة .

هذه المبادئ العشرة هي مفاتيح كلِّ معرفةٍ صادقة، وهي القاسم المشترك بين العلماء والفلاسفة وأهل الإيمان جميعًا قبل أن يختلفوا في التفاصيل. فمن فقدها، ضاع في متاهة النسبية، ومن تمسك بها، ثبت له ميزان العقل، واستقام له النظر، وسار في طريق البحث عن الحقيقة بثقةٍ وطمأنينة. فهي — في جوهرها — ليست قواعد للفكر فحسب، بل إشاراتٌ إلى أن وراء هذا الكون عقلاً أعظم، ونورًا أعلى، هو الذي أودع فينا هذه الفطرة لنبحث بها عنه.

الفصل الثاني – النظرية والشك واليقين .

Chapter 2 – The Journey from Doubt to Certainty

إذا كانت المسلمات هي الأرض الثابتة التي يبدأ منها العقل رحلته، فإنَّ الشك واليقين هما جناحاه في طريق البحث عن الحقيقة. ولولا الشك لما وُلد السؤال، ولولا اليقين لما استقرَّ الإنسان على جواب. الشكُّ مرحلةٌ فكرية، واليقينُ غايةٌ قلبية، وكلاهما من سنن الله في طريق المعرفة، إذ لا يُبنى اليقين إلا على سؤالٍ صادق، ولا يزول الشك إلا بنور الدليل.

معنى النظرية والشك

النظرية في أصلها ليست نفيًا للحق، بل وسيلةٌ للوصول إليه. هي الفكرة التي تُختبر بالمنطق والتجربة والملاحظة، فإن ثبتت سُميت “علمًا”، وإن بقيت قيد البحث سُميت “فرضية” أو “نظرية”. لكن بعض الناس اتخذ من النظريات بابًا للشك في كل شيء، فصار لا يثق بعقله، ولا يؤمن بقلبه، وظنَّ أن الحرية الفكرية تعني إنكار الثوابت، مع أن الشكَّ المنهجيَّ غير الشكِّ الهدام. فالشكُّ المطلوب هو الذي يدفع إلى الفهم، لا الذي يهدم الأركان. هو الذي قال فيه “الغزالي:” من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يُبصر، ومن لم يُبصر بقي في العمى والضلال

بين الشكِّ المرَضِي والشكِّ المنهجي

الشكُّ نوعان:

1. شكُّ مرَضِيٍّ يزرعه الشيطان في القلب، فيضعف الإيمان ويهدم اليقين، فيُصبح صاحبه مترددًا، متناقضًا، لا تثبت على فكرةٍ ولا على عقيدة.
2. وشكُّ منهجيٍّ يولد من حبِّ الحقيقة، ومن رغبة صادقةٍ في الفهم، وهو الذي قاد إبراهيم عليه السلام إلى التأمل حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (البقرة: 260). لم يكن شكًّا في قدرة الله، بل طلبًا لطمأنينةٍ أعمق، فقال له ربه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. فاليقين ليس نقيض السؤال، بل ثمرته. والإيمان لا يناقض التفكير، بل يقوم عليه.

مثال تطبيقي

ينظر علماء الحديث إلى السنَّة النبوية على أنها وحيٌّ من عند الله، لكنهم لا يقبلون كل ما يُروى عنها دون تمحيص، بل يتعاملون مع الأحاديث بميزان الشكِّ المنهجيِّ، فيختبرون كل روايةٍ سندًا ومنتأ حتى يثبتوها أو يضعفوها. فالأصل أما عندهم هو الشكُّ العلمي المنهجي حتى يقوم الدليل، وحين يثبت الحديث يصبح عندهم يقينًا أو غالبَ ظنٍّ راجعًا الشكِّ السلبيِّ، فهو موقف من ينكر السنَّة كُلَّها بدعوى الشك، فيستخدم الشك لا للبحث عن الحقيقة، بل لهدمها. وهكذا يكون الفرق بين الشكِّ الذي يقود إلى العلم، والشكِّ الذي يقود إلى الضلال

مراتب اليقين

:اليقين في القرآن له ثلاث مراتب بيّنها الله تعالى

1. وهو العلم المستند إلى الدليل القطعي، كمن يسمع عن النار فيصدق بوجودها علمًا: علم اليقين.
 2. وهو أن يرى الإنسان بعينه ما كان يؤمن به، كمن يشاهد النار بعد أن كان يعلم بها: عين اليقين.
 3. وهو أن يباهر الحقيقة بنفسه، كمن يدخل النار فيحسّ بحرًا: حقّ اليقين.
- قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: 5-8). وفي موضع آخر قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ (الواقعة: 95)

مثال تطبيقي

لو سمعتَ عن بلدٍ اسمها فرنسا، فتصدّقك بوجودها هو علم يقين لأنه وصل إليك بالتواتر. فإذا زرتها ورأيتها بعينك وكذلك في الإيمان بالغيب: فنحن نعلم يقينًا. صار ذلك عين يقين، أما إن عشتَ فيها وعاشت واقعا فذلك حقّ يقين بوجود الجنة والنار، وسيراهما المؤمن والكافر يوم القيامة رؤية العين (عين اليقين)، لكن دخول أحدهما — والعياد فكلاهما يقين، لكنها تختلف في المراتب. بالله — هو بلوغ حقّ اليقين

الشك واليقين في البحث العلمي

الشكّ هو محرّك البحث العلمي، فلا يكتشف الإنسان قانونًا إلا بعد أن يشكّ في الفهم السائد، لكن هذا الشكّ مقيدٌ بقواعد المنهج العلمي. فالتجربة لا تُقيل إلا إن كانت قابلةً للتكرار، والنتيجة لا تُعتمد إلا إذا كانت خاليةً من التحيز، ولا يجوز الخلط بين السبب والاقتران، لأن وجود شئين معًا لا يعني أن أحدهما سبب الآخر. وهكذا يقوم العلم على مبدئين السببية والحياد، وهما من المسلّمات التي ذكرناها في الفصل السابق. ومن هنا، فإنّ العلم الصحيح لا يناقض: ثابتين الإيمان، بل يقود إليه، لأنه يكشف عن النظام الدقيق الذي أودعه الله في الكون

الدليل الظني والقطعي (الفرق بين الظن واليقين).

من المهم أن يُفرّق الباحث بين الدليل الظنيّ والدليل القطعيّ، فكثيرٌ من الناس يخلطون بينهما فيظنّون أن كلّ ما يسمعونه من نظرياتٍ أو اجتهاداتٍ هو حقٌّ مطلق، بينما هو في الحقيقة ظنّيٌّ يَحتمل الخطأ. وكذلك في مجال الفقه والشريعة، فبعض النصوص ظاهرةٌ في الوجوب أو التحريم، لكنّها عند التأمل دليلٌ ظنّيٌّ يفهم في ضوء غيره من الأدلة.

مثال تطبيقي .

قال الله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ (البقرة: 282). يظنّ بعضُ الناس أن هذا أمرٌ واجب، لأنّ الله قال “أشهدوا”، لكنّ العلماء فهموا الآية على أنّها دليلٌ ظنّيٌّ في الوجوب، وقطعيٌّ في الاستحباب، لأنّهم ينظرون إلى النصّ في ضوء القواعد والأدلة الأخرى. فليس كلّ أمرٍ في القرآن يدلّ على الوجوب، ولا كلّ نهْيٍ يدلّ على التحريم، بل يفهم السياق بميزانٍ يجمع بين اللغة والسنة وأصول الفقه، ومن هنا كان الاجتهاد علمًا قائمًا بذاته، لا يُبنى على الظنّ الساذج، بل على الفهم الدقيق لطبيعة الدليل وقوّته، وهو ما يحمي الفكر والدين من الغلوّ أو التفريط

درجات الظنّ ومفهومه عند العلماء

كثيرٌ من الناس لا يدرك أنّ الظنّ درجات، فيظنّ أنّ الظنّ يعني الشكّ أو عدم التصديق، وهذا غير دقيق. فالظنّ قد يبدأ من مستواه الأدنى — وهو ما يسمّيه الناس شكًّا — ثم يرتقي إلى غلبة الظنّ، وهي درجة قريبة من اليقين. وفي علم الحديث نرى ذلك بوضوح: فالأحاديث الصحيحة والحسنة تتفاوت في قوة الثبوت، فالصحيح يرقى إلى غلبة الظنّ العالية (مثلاً 95%)، وما اجتمع عليه الشيخان قد يبلغ (98%)، أما الحسن فقد يكون في حدود (90%). ولهذا لا يؤخذ غير حديث واحد على أنه يقينيٌّ مطلقٌ كآيات القرآن، بل يُنظر إلى مجموع الأدلة، ويُرجّح بين الراجح والمرجوح أنّ هذا الأمر، لاختلاط النيات الحسنة بالسيئة، قد اختلط على عامة الناس؛ فبعضهم يُنكر الظنّ ظنًّا أنه شكّ، وبعضهم يُسلم لكل ما يُنسب للدين بلا تثبّت أو ميزانٍ علميٍّ دقيق. فكلمة الظنّ عند العلماء لا تعني الشكّ السلبي، بل تعني أنّ الدليل لم يبلغ درجة اليقين القطعي الذي لا يحتمل نقيضًا — كما في نصوص القرآن المحكمة

حدود العقل ومقام الإيمان .

العقل أداة عظيمة، لكنه محدود. فهو يستطيع أن يدرك كيف تعمل الأشياء، لكنه لا يدرك لم هي على ما هي عليه. ولذلك قال العلماء: "إن للعقل حدًّا يقف عنده، فإذا تجاوزته تاه." وهنا يأتي دور الوحي ليكمل ما يعجز عنه العقل. فالعقل يُبصر الظاهر، والوحي يُنير الباطن. العقل يطلب الدليل، والوحي يمنح اليقين. فمن جمع بينهما، نجا من الغلو والتقصير، ومن فصل أحدهما عن الآخر، تاه في ظلماتٍ لا هدى فيها

لك أن تتخيّل .

من اللافت أنّ الله تعالى استخدم في القرآن لفظ الظنّ أحيانًا في وصف المؤمنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ (البقرة: 46)، وقال عن المؤمن الصالح: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ (الحاقة: 20)، وقال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ﴾ (البقرة: 249). وقد اختلف العلماء في تفسيرها، فقال بعضهم إنّ الظنّ هنا بمعنى اليقين، وقال آخرون إنّهُ ظنٌّ إيمانيٌّ صادقٌ أصله غيبٌ ظنيٌّ، لكنّه ارتقى في وجدان المؤمن إلى مرتبة اليقين بهداية الله ونور الفطرة. فالإيمان بالغيب في أصله ظنيٌّ من حيث المنهج العلمي، لكنّه في القلب الصادق يرتقي إلى اليقين، لأنّ الله تعالى يهدي من علم فيه صدق النية وحبّ الحق، فيحوّل ظنّه إلى يقين، كما قال: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: 213). فاليقين إذا هبةٌ وهداية من الله لمن صدق في طلب الحقّ، ولذلك قال سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: 124)

خلاصة وتأمّل

الشكّ طريقٌ، لا غاية. والبحثُ عبادةٌ، إذا كان القصد به معرفة الله والحقّ. فمن جعل الشكّ دينه، عاش قلقًا لا قرار له، ومن جعل اليقين نهاية رحلته، عاش مطمئنًا يرى يد الله في كل شيء. ولهذا، كان الإيمان الحقّ أن يوازن العبد بين

عقله وقلبه، فيعمل بعقله، ويهتدي بقلبه، ويستضيء بوحى ربّه، حتى يبلغ من الطمأنينة ما يجعل الشكّ وسيلةً لا مأوى.

الفصل الثالث

البنية النفسية وتكوين المعتقدات

إذا كان العقل أداة التفكير، فإنّ النفس هي البيئة التي ينمو فيها الفهم ويتشكّل فيها المعتقد. فليست المعتقدات مجرد أفكارٍ عقليةٍ جامدة، بل هي حصيلةٌ تفاعلٍ معقّدٍ بين العقل والنفس والبيئة والوجدان. ولذلك فإنّ إدراك بنية النفس هو مفتاحٌ لفهم سبب اختلاف الناس في قناعاتهم، بل هو المدخل الصحيح لمعرفة كيف يتكوّن الإيمان أو ينحرف، وكيف تتبدّل المرجعيات بين إنسانٍ وآخر رغم اشتراكهم في نفس الحواسّ والعقل.

الإنسان بنية متكاملة .

خلق الله الإنسان وحدةً متكاملةً من عقلٍ وقلبٍ ونفسٍ وجسد. فالعقل محلّ التفكير، والقلب موضع الفهم والوجدان، والنفس مسرح الصراع بين الشهوات والنور، والجسد أداة التنفيذ التي تُترجم ما استقرّ في الداخل. ولهذا قال تعالى: (فَأَيُّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (الحج: 46)

فمصدر العمى الحقيقيّ ليس في الحواس، بل في القلب. ومن هنا نفهم أن الإيمان ليس مجرد تصديقٍ عقلي، بل حياةٌ داخليةٌ يملؤها النور.

كيف تتكوّن المعتقدات .

يتلقّى الإنسان منذ طفولته مئات الرسائل من البيئة من أسرته، مجتمعه، مدرسته، وثقافته، "فتتشكّل لديه صورةٌ عن "الحقّ" و"الخطأ"، وعن "الله" و"الدين" و"الناس". ثم تتعمّق هذه الصور عبر العاطفة والتجربة والموقف، فتتحوّل من معلوماتٍ إلى معتقداتٍ راسخة، قد يصعب تغييرها حتى لو تغيّرت الأدلة من حوله.

"ولذلك قالوا: "الإنسان لا يرى العالم كما هو، بل كما هو من داخله. فالعقل لا يعمل في فراغ، بل يُفسّر كلّ ما يراه وفق منظومته السابقة من التجارب والمشاعر والمسلمات.

أثر البيئة والتجارب .

النفس كالأرض: تُنبت ما يُزرع فيها. فمن نشأ في بيئةٍ سالحةٍ نقيّةٍ، امتلأ قلبه إيماناً وسكينة، ومن عاش في بيئةٍ فاسدةٍ مضطربةٍ، صار عقله متوتّراً ونظرتَه للحياة مشوّهة.

:ولهذا قال تعالى

(بَلِّغِ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةً) (القيامة: 14)

فكل إنسان يحمل في داخله مرآة يرى بها الحقائق،

لكن صفاء الصورة يتوقف على نقاء هذه المرآة

وكلما زاد صدق النفس ونقاء السريرة، اقتربت رؤيتها من الحقيقة التي أرادها الله

بين الفطرة والتشويه .

الإنسان يولد على فطرة نقية تعرف ربها وتميز الخير من الشر

”قال النبي ﷺ: “كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه

لكن هذه الفطرة قد تتشوه بما تكتسبه النفس من مؤثرات فكرية أو نفسية أو اجتماعية،

حتى تصبح أحياناً أسيرة تصورات مزيفة عن الله والكون والحياة

ولذلك كان الوحي هو الميزان الذي يعيد للعقل اتزانها، ويظهر النفس من تشويهات البيئة والعادات والموروثات

آليات الدفاع النفسي .

حين تصطدم المعتقدات بالواقع أو بالدليل، تبدأ النفس آليات الدفاع اللاشعورية لتبرير ما تعتقده

فتارة تُنكر الدليل، وتارة تُفسره بطريقة تُرضيها، وتارة تهاجم من يقدّمه

، وهذا ما يسميه علماء النفس “التحيز المعرفي

أي ميل الإنسان لتصديق ما يوافق هواه ورفض ما يخالفه، حتى لو كان الدليل واضحاً أمام عينيه

:قال تعالى

(بَلِّغْ لَهُم بِالْحَقِّ وَآكْثُرْ لَهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) (المؤمنون: 70)

فالإنكار ليس دائماً نقصاً في الفهم، بل قد يكون رفضاً داخلياً يحول دون التسليم للحق،

خوفاً من تبعاته أو تهرباً من الاعتراف بالخطأ

العلاقة بين العقل والقلب والنفس .

لفهم هذا التوازن الدقيق، يمكن تقريب الصورة بمثال تقني مألوف

- الذي يولد به الإنسان (Original System / BIOS) نظام التشغيل الأصلي: الفطرة
- الذي يحلّل ويقبس ويقترح (Processor / CPU) المعالج: العقل
- الذي يُصدر الأوامر (Decision Center) مركز القرار: القلب
- الذي يخزّن الميول والخبرات (User Profile) الملف الشخصي: النفس
- التي تعمل بأمر القلب (Hardware Outputs) أدوات التنفيذ: الجوارح

- التي تحفظ كل أمرٍ وفعل (Activity Logs) سجلات الذاكرة: الأعمال والنيات
 - التي تحدّد جودة الأداء (Software / Apps) البرامج: الإيمان والعلم
 - بأمر الله (Restore) ثم إعادة التشغيل (Shutdown) إيقاف التشغيل: الموت والبعث
- تمامًا كما تكون بعض الأجهزة بسيطة المظهر لكنها تحمل نظامًا عظيمًا،
فكذلك الإنسان: قيمته ليست في جسده، بل في برامجه الداخلية من علمٍ وإيمانٍ ونيةٍ

القلب .

القلب هو مركز الإرادة والقرار، ومحلّ نظر الله عز وجل
ليس المقصود به العضو البيولوجي فحسب، بل الكيان المعنوي الذي يُعبّر عن الإرادة والإيمان والمحبة والخشية
قال رسول الله ﷺ
”إنّ الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم“
فهو الذي يختار الاتجاه بعد أن يُقدّم العقل المعطيات وتعرض النفس رغباتها،
فإذا صلح القلب صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله
فالقلب هو بوابة النور أو الظلمة، وهو الذي به يعرف الإنسان ربّه أو يعرض عنه

توضيح العلاقة بين المكوّنات .

يمكن تلخيص عمل هذه المكوّنات بأنّ العقل يقَدّم القراءة والتحليل، والقلب يتّخذ القرار، والنفس تدفع أو تُعيق حسب صفائها،
فإن كانت طيبةً مطمئنّةً أعانت القلب على الطاعة، وإن كانت أمّارةً بالسوء جرّته إلى الهوى
فالتكامل بينها هو سرّ التوازن الإنساني، والانحراف في أحدها يفسد البقية

الروح .

لم نذكر الروح في هذا المثال تأدبًا مع الله عز وجل، لأنّها من أمره، كما قال تعالى
(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (الإسراء: 85)

وقد قال الغزالي إنّها لطيفة ربانية لا تُدرَك بالحسّ،
وقال ابن تيمية إنّها قائمة بذاتها لا يعلم حقيقتها إلا الله
لذا لا يصحّ تمثيلها بالبطارية أو الكهرباء، لأنّ هذا تمثيل للمحدود بما لا يُحدّ
وكلّ خوضٍ في ماهيتها تجاوزَ للحدود التي أمر الله بها، فننتوقف حيث وقف الوحي

أثر النية في تكوين الفهم .

النية ليست عملاً قلبياً عابراً، بل هي البوصلة التي تُوجّه الإدراك كله فمن كان قصده الحق، فتح الله له أبواب الفهم، ومن أراد الجدل والظهور، أغلق عنه باب الهداية، وإن أوتي ذكاءً وبلاغة

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا رَأَوْا آيَاتِ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف: 5)

فالنية مفتاح العلم، ومن صدق في طلب الحق، أراه الله ما لم يُر غيره، ولو كان أذكى منه عقلاً لأن الله لا يفتح أبواب الهداية إلا لقلب صادقٍ نيّته نقيّة

البصيرة: حين يلتقي العقل بالنور .

البصيرة هي ثمرة تلاقي العقل النقي والقلب السليم هي وعيٌ يراه صاحبه بنور الله، لا بعينه المجردة، فالعلم وحده لا يكفي، والعاطفة وحدها تُضلّ، "أما إذا اجتمع صفاء العقل مع إخلاص القلب تولد النور الذي يسمّيه القرآن "البصيرة

قال تعالى:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف: 108)

وكثيرٌ من العقول الكبيرة التي تحمل علماً واسعاً وبياناتٍ غزيرة، قد تُحرم البصيرة لأنّ قلوبها مريضة، فيتحوّل علمها إلى سببٍ للغرور والضياع بينما ترى صاحب القلب الصادق، وإن قلّ علمه، أكثر هدايةً ونوراً

فالعلم طريق الفهم، والإخلاص طريق البصيرة، ومن جمع بينهما رأى الحقّ بعيني عقله وقلبه معاً

خلاصة وتأمّل .

كلّ فهم ينشأ من قلبٍ مريضٍ أو نفسٍ ملوّثةٍ يكون منحرفاً ولو بدا منطقيّاً، وكلّ فهم يخرج من قلبٍ سليمٍ يوافق الفطرة والوحي يكون أقرب إلى النور فطهارة القلب شرطٌ للهداية، والصدق في طلب الحقّ هو أعظم ما يُورث الفهم الصحيح

ومن هنا، كان إصلاح النفس مقدّمةً لكل إصلاحٍ فكريٍّ أو دينيٍّ أو اجتماعي، لأنّ طريق معرفة الله يبدأ من الداخل

الفصل الرابع المرجعية العقلية وتشكل الفهم

لكل إنسان مرجع داخلي يعود إليه حين يفكر أو يُقرّر أو يُفسّر الأحداث من حوله. قد تكون هذه المرجعية دينية أو علمية أو اجتماعية أو عاطفية، لكنها في النهاية هي التي تحدّد كيف يرى الإنسان الحقيقة وكيف يتعامل معها.

إنّ العقل لا يعمل في فراغ، بل يستند في تفسيره إلى قواعد وإيماناتٍ سابقةٍ تكوّنت عبر التربية، والبيئة، والخبرات، والثقافة، والمشاعر. فما نراه ونحكم به اليوم، ليس دائماً ناتجاً عن منطقٍ جديد، بل غالباً هو إعادة ترتيبٍ لما آمنا به من قبل.

معنى المرجعية العقلية .

المرجعية العقلية هي الإطار الحاكم الذي يُفسّر به الإنسان كل ما يراه ويسمعه ويشعر به. هي أشبه بعدسة ذهنية ووجدانية تُحدّد زاوية النظر إلى الوجود. فالعقل لا يتعامل مع الوقائع مباشرة، بل يمرّها عبر هذا الإطار المسبق الذي يوجّه الإدراك، ولذلك يختلف الناس في الفهم مع أنهم يرون نفس المشهد ويسمعون نفس الكلام.

قال تعالى:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِبُّوا يَعْلَمُوهُ) (يونس: 39)

أي إنهم كذبوا لأنّ مرجعتهم السابقة لم تسمح لهم باستيعاب ما يسمعون.

مصادر تشكيل المرجعية .

تتكوّن المرجعية العقلية من عدّة روافدٍ متداخلة تشكّل معاً البنية الذهنية للإنسان:

1. وهي الأصل النقي الذي فطر الله الناس عليه لمعرفة الحقّ من الباطل: الفطرة .
 2. وهي ما يكتسبه الإنسان من والديه ومجتمعه وثقافته وتجارب طفولته الأولى: البيئة والتربية .
 3. التجارب التي يمرّ بها وتترك بصمتها في لا وعيه وفي نظرتة للأشياء: الخبرة الشخصية .
 4. ما يتلقاه من علومٍ ومناهج وأفكار تشكّل طريقة تفكيره واستنتاجه: المعرفة والتعليم .
 5. إذ ليست العقول وحدها من تُقرّر، بل القلوب أيضاً: الوجدان والمشاعر .
- وحين تتفاعل هذه العناصر معاً، تتكوّن "الخريطة الذهنية" التي يتعامل بها الإنسان مع الكون والدين والناس والحياة.

كيف تتبدّل المرجعية .

قد يولد الإنسان على فطرةٍ سليمة، ثم تتراكم عليها طبقاتٌ من الموروث والعادات والتجارب المؤلمة، حتى تغطّي صفاء الفطرة وتشوّه رؤيّة العقل. ولكن الله جعل في الإنسان قدرةً على المراجعة والتصحيح، ولهذا دعا القرآن إلى التفكّر والتدبّر، لأنّ إعادة النظر في المسلّمات هي السبيل إلى تطهير المرجعية من الانحراف

قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أُعِطْتُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَنَّتِي وَأَفْرَادِي ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ (سبأ: 46)

فالتفكّر الصادق هو قيامٌ لله، أي تحرّرٌ من ضغط البيئة والهوى والمجتمع، ليكون العقل أداةً للحق لا أداةً للتبرير

الانحياز والتفسير الانتقائي .

الانحياز: من أعظم ما يُفسد المرجعية

فالعقل إذا تحكّم فيه الهوى، صار يُفسّر الأدلة لا ليصل إلى الحقيقة، بل لبيّر ما يريد أن يعتقد مسبقاً

قال تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الجاثية: 23)

وهذا من أخطر أنواع الشرك الخفي، أن يتخذ الإنسان من رأيه ومزاجه معياراً للحكم على كلام الله، فلا يرى إلا ما يوافق هواه

ولذلك قال ابن القيم رحمه الله

”الهوى يُعمي ويُصمّ، ويُضلّ القلب عن سبيل الله“

إنّ التفسير الانتقائي يجعل الإنسان يقتطع النصوص والأحداث ليخدم فكرته المسبقة، فيفسد عليه نظره ويُغلق عليه باب الهداية

العلاقة بين العقل والقلب والنفس .

العقل آلة التفكير، والقلب مركز الإرادة والقرار، والنفس مجال التفاعل بينهما

فالعقل يُقدّم تصوّر، والقلب يختار ويوجّه، والنفس هي الساحة التي تتصارع فيها الدوافع والرغبات والضمير

ولهذا قال النبي ﷺ

«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»

فالقلب هو موضع نظر الله عز وجل، وهو الذي يُبِير البصيرة أو يطمسها

وليس المقصود به القلب البيولوجي بالضرورة، وإن كان العلم الحديث قد أثبت أن القلب يؤثر في الانفعالات والقرارات،

لكن المقصود هو القلب المعنوي: محل الإرادة والنية والعزم

فإذا صلح القلب، صلح الفهم، واستقامت المرجعية، وأشرقت البصيرة بنور الله

أثر النية في صفاء المرجعية .

النية الصادقة هي التي تطهر زاوية النظر وتفتح باب الفهم فمن كان قصده وجه الله، فتح الله له أبواب الهداية، ومن أراد الجدل والظهور، أغلق عنه باب العلم وإن حفظ الكتب كلها.

قال تعالى:

{يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ} (المائدة: 16)

فالهداية مرتبطة باتباع الرضوان لا بكثرة المعلومات. إنها نقاء القصد الذي يجعل الوحي يثمر في القلب علمًا ونورًا، بينما يتكدس العلم في قلب مريض فيتحول إلى ظلام وجدالٍ وغرور

ولهذا ترى بعض العقول الكبيرة تحمل كمًّا هائلًا من المعلومات، لكنها فقدت نور الهداية لأن القلوب التي تحملها كانت مريضة أو متكبرة

وقليل العلم مع قلب سليم خيرٌ من كثير العلم مع قلب مريض، فالعبرة ليست بما يخزنه العقل من بيانات، بل بما يتلقاه القلب من نور وإخلاصٍ وصدق

الفهم بين العقل والوحي .

العقل أداة للفهم، والوحي مصدرٌ للحقّ ولا صلاح للعقل إلا بالوحي، كما لا قيام للوحي في النفس إلا بعقلٍ متفكّرٍ سليم فالمنهج الصحيح أن يكون الوحي هو الأصل، والعقل خادمًا له، يعمل في ضوء النصّ لا في غيابه فمن جعل الوحي تابعًا لعقله، تاه في متاهات النسبية والظنّ، ومن عطّل العقل، حُرِم فهم الوحي، وصار أسير التقليد

قال تعالى:

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (النحل: 12)

فالآيات موجهة لمن يعقل في ضوء الإيمان، لا لمن يجعل العقل إلهاً يُعبد من دون الله فالعقل لا يُعارض الوحي، بل يُعين على فهمه، كما أن العين لا تُغني عن النور، ولكنها تبصر به

صراع المرجعيات في الواقع .

تتعدد المرجعيات اليوم بين دينية وعقلانية ومادية ونفعية وإنسانوية، وقد يتوه الإنسان بين الأصوات حتى لا يدري أيها الحقّ

لكنّ المؤمن يعلم أنّ ميزان الحقّ هو ما وافق الوحي الصحيح والعقل السليم والفطرة المستقيمة معًا، وأنّ كلّ ما يخالف هذا الميزان فهو زائفٌ مهما بدا لامعًا

قال تعالى:

{فَمَادَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ} (يونس: 32)

فليس بعد نور الوحي إلا ظلمة الهوى، ولا بعد هداية الفطرة إلا التيه في دروب المادة والشهوة والمصلحة

من تصحيح المرجعية إلى صفاء الفهم .

لا يمكن أن يفهم الإنسان القرآن أو الكون فهمًا صحيحًا ما لم يُصَحَّح مرجعيته أولاً .
فالفهم ليس في كثرة المعلومات أو سرعة الحفظ، بل في نقاء المنطق الذي يُفسَّر به الإنسان تلك المعلومات

:ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله

”ما جادلتُ أحدًا إلا تمنَّيت أن يُظهر الله الحقَّ على لسانه“

فمن كانت هذه نيَّته، صَفَّت مرجعيته، واستقام فهمه، وهداه الله سواء السبيل .
أما من جعل الجدل هدفه، والانتصار لرأيه غايته، فقد أفسد نيَّته، وتلوَّثت مرجعيته، وإن ظنَّ أنه ناصرٌ للحقِّ

خلاصة وتأمل .

العقل لا يُنير وحده، ولا يُضِلّ وحده؛ إنما يُضيء حين يعمل في إطار الوحي والفطرة، ويُضِلّ حين يتبع الهوى
والمصلحة

فصفاء المرجعية هو الطريق إلى صفاء الفهم، ومن صفا فهمه أكرم بالبصيرة،
ومن تلوَّثت مرجعيته، عميت بصيرته وإن حفظ النصوص عن ظهر قلب

:قال تعالى

{فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (الحج: 46)

ومن هنا، كان أول إصلاح يبدأ من الداخل: أن يُراجع الإنسان مرجعيته، ويطهّر نيَّته، حتى يُصبح العقل خادماً للحقِّ
لا حارساً للهوى، وتصبح البصيرة طريقه إلى الله لا وسيلته إلى الغرور

الفصل الخامس

فلسفة الإيمان والعقل في ضوء النسبية

من أعظم ما ميّز الإنسان عن سائر المخلوقات أنه وُهب العقل، وجُعِلت له القدرة على التفكير والاستنتاج والبحث عن المعنى. لكن هذه النعمة العظيمة قد تتحوّل إلى نقمةٍ حين ينفصل العقل عن الوحي، أو حين يتوهّم الإنسان أنه يستطيع إدراك كل شيء بنفسه، فيقع في ما وقع فيه كثيرٌ من الفلاسفة قديماً وحديثاً: الغرور المعرفي.

النسبية في الفكر الإنساني .

تقوم “النسبية” في أصلها على فكرةٍ صحيحة: أن الناس يختلفون في إدراكهم للأشياء بحسب زاوية النظر، ومدى التجربة، والمكان، والزمان، والظروف. لكنّ الخطأ وقع حين تحوّلت النسبية من توصيفٍ للاختلاف إلى إنكارٍ للحقيقة نفسها، فصار بعضهم يقول: “لا حقيقة مطلقة، بل كلّ شيءٍ نسبي”. وهذا في ذاته تناقض، لأنّ القول “لا حقيقة مطلقة” هو ادعاءٌ لحقيقةٍ مطلقة. وهكذا سقط الفكر الإنساني الحديث في فخّ جديد: أنكر المطلق وهو يتكلم بلغة المطلق.

نسبية الإدراك لا تعني نسبية الحقيقة .

الاختلاف في الرؤية لا يعني اختلاف الحقيقة. فالشمس واحدة، وإن اختلف موضع الناظر إليها، والضوء واحد، وإن رأى أحدهم انعكاسه في الماء وآخر في الزجاج. قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ (فاطر: 19-20)

إنّ إدراك الإنسان محدودٌ بزمانه ومكانه وأدواته، لكنّ الحقيقة فوق إدراكه، تماماً كما أن موجات الضوء موجودةٌ كلها، لكنّ العين لا ترى إلا جزءاً منها. فالله هو الحقّ المطلق، والعقل وسيلةٌ محدودةٌ لفهم بعض آثار هذا الحقّ، لا لإحاطته.

حدود العقل الإنساني .

العقل مثل العدسة: يرى بوضوح ما يقع ضمن بؤرته، لكنه يعجز عن رؤية ما وراء المدى. فهو يدرك القوانين والظواهر، لكنه لا يدرك ذات الغيب ولا جوهر الوجود. ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه: 110)

وقد دأبت العلوم الحديثة نفسها على هذه المحدودية، ففي الفيزياء الكمية والكونية، تتبدّل القوانين عند حدودٍ معيّنة، ويعترف العلماء أن وراء الأفق مجاهيل لا يستطيع العقل البشري إدراكها. وهكذا يتبيّن أن العجز عن الإحاطة ليس نقصاً في العلم، بل تذكيرٌ للإنسان بحدوده أمام عظمة الخالق.

من النسبية الفيزيائية إلى النسبية الفكرية .

حين جاء أينشتاين بنظريته النسبية، لم يكن يقصد إنكار الحقيقة، بل أراد أن يبيّن أن المقاييس تختلف باختلاف الإطار المرجعي.

فالزمن والمكان ليسا مطلقين، بل مرتبطان بسرعة الحركة وموقع المراقب. لكنّ بعض الفلاسفة أسأوا فهمها، فانتقلوا من نسبية القوانين الفيزيائية إلى نسبية الحقائق الوجودية، فأنكروا الثابت، "ونسبوا حتى الأخلاق إلى الزمان والمكان، حتى صاروا يقولون: "ما كان خيرًا بالأمس قد يكون شرًا اليوم. وهكذا تحوّل الخطأ العلمي إلى مرضٍ فكريٍّ أصاب الوعي الإنساني

الفرق بين الإطار المرجعي والإطار القيمي .

في الفيزياء: الإطار المرجعي يغيّر القياس، لا الحقيقة. وفي الفكر: الإطار القيمي يغيّر الحكم، لا الجوهر. فمثلاً:

- الظلم يبقى ظلماً في كل الأزمنة،
 - والعدل يبقى عدلاً في كل الثقافات،
- لأنّ القيم مصدرها الفطرة والوحي، لا المزاج الإنساني

قال تعالى:

(فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) (الروم: 30)

فحين تُنسب الأخلاق والمعاني إلى الأهواء، يفقد الإنسان بوصلة الهداية، ويغرق في النسبية التي تقتل اليقين وتُثميت الضمير.

الإيمان المطلق في عالم نسبي .

الإيمان بالله هو الثابت الوحيد في بحر المتغيرات. فهو الذي يمنح العقل ميزانه، والقلب استقراره. فمن عرف الله، عرف المركز الذي تدور حوله الحقائق، ومن فقد الإيمان، عاش في دوامة النسبية بلا قرار.

قال تعالى:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) (البقرة: 2)

فالهدى مشروطٌ بالتقوى، أي بطهارة القصد، لأنّ الله لا يهدي من في قلبه زيغٌ أو تكبر. إنّ الإيمان لا يُلغي العقل، بل يضع له حدوداً تحفظه من الضلال، تماماً كما تحفظ قوانين الجاذبية الطائر من السقوط حين يلتزم بها.

كيف يتكامل الإيمان والعقل .

الإيمان يمنح العقل الهدف، والعقل يمنح الإيمان الفهم. فالعقل بلا وحي كالبوصلة بلا شمال، والوحي بلا عقلٍ كخريطةٍ في يد أعمى.

ولهذا كان دين الإسلام هو الدين الوحيد الذي جمع بين "أقرأ" و"اعبد"، فجعل العلم عبادةً، والعبادة علمًا
قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: 190)

فالذين يتفكرون في الكون هم أنفسهم الذين يخشعون في الصلاة، لأن تفكرهم يقودهم إلى الخضوع لا إلى الجدل

النسبية بين الغيب والشهادة .

الغيب لا يُدرك بالحسّ ولا بالتجربة، لكنه يُدرك بالوحي، ويُصدّق به بالعقل
فالإيمان بالغيب ليس استسلامًا للعجز، بل إقرارٌ بأنّ للعقل حدودًا لا يتجاوزها إلا بالتصديق

قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة: 3)

فالذي يطلب من الله أن يكون كل شيء محسوسًا قبل أن يؤمن، هو كمن يطلب أن يرى الروح أو الجاذبية بعينه، وقد
نسي أن أكثر ما حوله غيبٌ لا يُرى

حين يتواضع العقل أمام الخالق .

العقل الذي يتواضع أمام خالقه يزداد نورًا وعمقًا، أما الذي يتكبر فيطلب أن يكون إلهًا في المعرفة، فهو أول من يضيع
في جهله

ولهذا كان إبليس أول من رفض حدود المعرفة والطاعة، حين قال مستكبرًا
﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف: 12)

فغلبه القياس العقلي على السمع والطاعة، فكانت أول معصية في التاريخ سببها عقلٌ متكبرٌ بلا إيمان

خلاصة وتأمل .

النسبية حقيقة في الإدراك، لا في الوجود

والعقل أداة لمعرفة الحق، لا لخلقه

والوحي هو النور الذي يُظهر للعقل الطريق حين يضطرب في الظلمات

فمن جمع بين نور العقل ونور الوحي، رأى الأشياء كما هي على حقيقتها،

ومن اكتفى بأحدهما، رأى نصف الصورة وتاه في النصف الآخر

قال تعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور: 35)

فالإيمان هو البوصلة في عالمٍ تتبدّل فيه الاتجاهات،

وهو اليقين الثابت في زمنٍ تتغيّر فيه المقاييس

الفصل السادس – معرفة الله: أشرف العلوم وأعظمها .

من أعظم ما يُشرف به الإنسان في حياته أن يعرف ربّه الذي خلقه، فإنّ كلّ علمٍ لا يوصل إلى الله يبقى ناقصًا مهما بلغ من الدقّة والعظمة. فالعقل الذي لا يعرف الله، كعين ترى تفاصيل الأشياء ولا تبصر الشمس التي تنيرها. ولهذا كان العلم بالله هو أشرف العلوم، وأعلىها منزلة، وأوثقها أثرًا في تهذيب القلب وتزكية النفس

قال ابن القيم رحمه الله

”أشرف العلوم على الإطلاق: العلم بالله، ولا يتمّ إلا بمعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله“

معرفة الله أصل الإيمان .

الإيمان الحقّ لا يقوم على وراثيّة ولا على تقليد، بل على معرفة تولّد محبةً وتعظيمًا وخشيّةً لله. ولهذا كانت أول كلمةٍ دعا بها الأنبياء أقوامهم

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

فالدعوة إلى التوحيد كانت دعوةً إلى المعرفة قبل أن تكون إلى الشعائر، لأنّ من عرف الله حقًا أحسن عبادته، ومن جهله ضلّ في عبادته وإن ظنّ أنه محسنٌ صنعًا

ولهذا قال بعض السلف

”لو علم الناس بالله ما أعلم، ما عبده إلا حبًّا له“

شرف هذا العلم وعلو قدره .

كلّ العلوم تُطلّب لمعرفة المخلوق، إلا هذا العلم، فإنه يُطلّب لمعرفة الخالق. وكل معرفةٍ تزيدك فخرا بنفسك، إلا هذه المعرفة، فإنها تزيدك تواضعًا وخشوعًا لربّك

فمن عرف الله، عرف نفسه، ومن جهل ربّه، جهل قيمته في الوجود. ولهذا قال بعض العلماء

”من عرف الله، هانت عليه الدنيا وسكنت جوارحه واطمأن قلبه“

فهو العلم الذي يورث السكينة، ويجعل صاحبه يرى الكون بعيونٍ جديدة، لا تُغيب عنها يد الله ولا رحمته ولا حكمته

أثر المعرفة في القلب .

إذا عرف العبد ربّه، تغيّر كل شيءٍ في نظره. يرى في كل نعمةٍ منحةً، وفي كل بلائٍ تربيةً، وفي كل قضاءٍ عدلًا ورحمةً. فلا يجزع عند البلاء، ولا يفتنّ عند العطاء، لأنه يعلم أنّ كلّ ما يجري عليه إنما هو من الله وإلى الله

قال تعالى

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ (التوبة: 51)

ومن هنا تتوّد الطمأنينة التي يبحث عنها الناس، طمأنينة القلب الذي وثق بربه وسلم له أمره، فلم يعد يخاف ضياعاً، ولا يضطرب في مواجهة المجهول.

بين العلم والوحي .

قد يظنّ بعض الناس أن العلم الحديث يُعني عن الوحي، لكنّ الحقيقة أن العلم يرشد إلى عظمة الصنع، والوحي يرشد إلى عظمة الصانع. فالعلم يُريك كيف خُلق الكون، والوحي يجيبك لماذا خُلق الكون. العلم يصف الظواهر، والوحي يكشف الغايات

ولهذا قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: 28)

أي الذين علموا حقائق الخلق فعرّفوا عظمة الخالق. فكأما ازداد العبد علماً بآيات الله الكونية، ازداد يقيناً بآياته القرآنية

قدسية هذا العلم .

إنّ فهم كلام الله على مراده شرفٌ عظيم، لأنّ كلام الله فوق كلام البشر، ولأنّ القداسة لا تُستمدّ من الحروف، بل من مصدرها الإلهي الذي نزل بها. فلا يُنال هذا العلم إلا بقلبٍ طاهرٍ ووجدانٍ سليمٍ ونيةٍ صادقةٍ

قال تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: 82)

فالقرآن نورٌ لمن استنار به، وحجابٌ على من أعماه الهوى والكبر. فمن قرأ القرآن بقلبٍ مريضٍ، زادت الآيات غفلةً، ومن قرأه بقلبٍ سليمٍ، أضاء الله له به الطريق

خطر الحرمان من النور .

إنّ أشدّ ما يُخشى على الإنسان أن يُحرَم من النور، فيبقى يسمع بلا فهم، ويرى بلا بصيرة. قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُضَلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الرعد: 33)

فالعقوبة الكبرى ليست في ضياع الدنيا، بل في أن يُحرَم العبد من الهداية بعد أن كان قادراً على نيلها. ومن أعظم أسباب هذا الحرمان: الكبر وسوء النية، كما قال تعالى:

﴿سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الأعراف: 146)

فمن تكبر على الله في قلبه، حُجب عن نوره ولو كان أعلم الناس بظاهره

طريق المعرفة بالله .

طريق معرفة الله لا يُدرك بالجدل ولا بالفلسفة وحدها، بل بالتدبّر في آيات الله الكونية والقرآنية، وبالتزكية التي تفتح القلب للبصيرة. فكما تُرى الشمس بالعين، يُرى الله بالبصيرة، ومن أعمى بصيرته لم يره ولو أقام آلاف الأدلة

قال تعالى:

﴿سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: 53)

إنها رحلةٌ عقليةٌ وروحيةٌ في آنٍ واحد، من النظر إلى الخلق إلى الخالق، ومن العلم إلى المعرفة، ومن المعرفة إلى المحبة، ومن المحبة إلى العبودية الخالصة

خلاصة وتأمل .

معرفة الله هي النور الذي يبديد ظلمات الجهل والقلق والضياغ، فهي التي تعيد للإنسان توازنه في عالم مضطرب، وتجعله يرى الغاية من حياته، ويعبد ربه على علمٍ لا على تقليدٍ أو خوف

قال تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق: 12)

فما أكرم الله إذ جعل أعظم الغايات في الوجود هي أن نعرفه، العبودية المبصرة، التي تجمع بين العلم والخشوع، وبين العقل والقلب، وما أكرم الإنسان إذ خُلق لأشرف المقامات فتجعل الحياة كلها سعيًا نحو معرفة الله وحبه ورضاه

الفصل السابع – الغاية من الوجود والعبودية لله

من أعظم الأسئلة التي حيرت العقول منذ فجر التاريخ: لماذا نحن هنا؟ وما الغاية من هذا الوجود؟ ولماذا خلق الإنسان وسُخِّر له ما في السماوات والأرض جميعاً؟ سؤالٌ يتردد في وجدان كل إنسان مهما اختلفت ثقافته أو عقيدته؛ لأن الفطرة ترفض أن تكون الحياة عبثاً أو أن يكون هذا الكون العظيم بلا هدفٍ ولا معنى. ولهذا جاء الجواب القرآني قاطعاً: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56). فالغاية من الخلق ليست لغزاً فلسفياً، بل حقيقةً بينها الله: أن الإنسان خلق ليعرف ربه ويعبده ويطيعه حباً وتعظيماً لا قهراً ولا إكراهاً؛ فالعبودية في الإسلام ليست نفيًا للحرية، بل هي تحريرٌ من عبودية الهوى والناس والمادة وربطٌ للروح بمصدرها الأعلى: الله سبحانه وتعالى.

معنى العبودية

العبودية في جوهرها ليست خضوع الجسد بل خضوع القلب والإرادة؛ أن يوقن العبد أن كل ما عنده من وجودٍ ونعمٍ وقوةٍ إنما هو من الله، فلا يتكبر ولا يتوهم الاستقلال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: 15). والعبودية لا تُنقص الإنسان بل ترفعه إلى مقامٍ لا يبلغه إلا من عرف ربه؛ لذا كان أشرف وصفٍ للذبي ﷺ في القرآن أنه عبد: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ (الإسراء: 1). وفي هذا سرٌّ عظيم: أن أرفع المقامات تُنال بكمال العبودية لا بكثرة السلطان؛ فالعبد حقاً قويٌّ بربه لا بنفسه.

الغاية من الخلق في ضوء الحكمة الإلهية

الله غنيٌّ عن خلقه لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم، ولكنه خلقهم ليعرفوه بأسمائه وصفاته وليتقربوا إليه بالعبادة والمحبة فينالوا الكمال الذي خلقوا له والسعادة التي لا تُنال إلا بمعرفته. قال ابن القيم رحمه الله: “غاية الخلق والأمر أن يُعرف الله بأسمائه وصفاته، ويُعبد وحده لا شريك له، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر؛ فبذلك قامت السماوات والأرض.” فالعبرة والعبرة تُوأمان لا ينفصلان: لا عبادة بلا معرفة، ولا معرفة بلا عبادة.

العبودية بين الجلال والجمال

الله يُعبد بحبٍ وخوفٍ ورجاء؛ فمن عبد بالخوف وحده قنط، ومن عبد بالرجاء وحده اغتر، ومن عبد بالمحبة وحدها ضل، ومن جمع بينها فقد عرف ربه حقاً. قال تعالى: ﴿ذُنُوبِي عِبَادِي أُبِي أَنَا الْعَفُورُ الرَّجِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر: 49-50). فهو ربُّ الجلال الذي يُخاف وربُّ الجمال الذي يُحب، ومن جمع بين الخوف والرجاء والمحبة عاش عبداً لله في توازنٍ وسكينة.

العبودية طريق الكمال الإنساني

كل ما يسعى إليه الإنسان من علمٍ أو ماليٍّ أو لذةٍ أو جاهٍ إنما هو بحثٌ عن معنى وكمالٍ وسعادةٍ دائمة، غير أنه لا يدرك أن هذا الكمال لا يتحقق إلا في العبودية لله؛ فالعبد لله حرٌّ من كل قيد، لأن من خضع لله استغنى عن الخضوع لغيره، ومن أحب الله استغنى عن حبِّ ما سواه. قال بعض العارفين: “هربوا من الرقِّ الذي خلقوا له فابتلوا برقِّ النفس والشيطان.” فمن لم يعبد الله عبد هواه، ومن لم يخضع للخالق خضع للمخلوقين.

معنى الحياة في ضوء العبودية

حين يدرك الإنسان الغاية من وجوده يصبح لكل لحظة من حياته معنى؛ يعمل ويأكل وينام ويبتسم ويتأمل، لكنه يرى في كل ذلك عبادةً إذا أخلص النية لله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: 162). فالعبودية ليست زاوية ضيقة في المسجد، بل هي منهج حياة شامل يملأ اليوم كله ويهدب النية كلها.

من العبودية إلى الاستخلاف

لم يخلق الله الإنسان ليعتزل الكون، بل ليكون خليفةً فيه يُقيم العدل ويُظهر الحق؛ فالعبودية ليست انطواءً بل عمارة، وليست سلبية بل فاعلية راقية منضبطة بأمر الله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: 30). فالاستخلاف امتداد للعبودية والعمل في الأرض جزء من طاعة الله ما دام القلب موصولاً بالنية الصالحة والغاية النبيلة.

سر السعادة في العبودية

من أعظم أسرار الوجود أن السعادة لا تُنال بالسيطرة بل بالتسليم، ولا بالقوة بل بالخضوع لله؛ فالعبد حين يضع جبهته على الأرض يشعر بحرية لا توصف لأنه خرج من ضيق نفسه إلى سعة رحمة ربه: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (لقمان: 22). فلا راحة للقلب إلا في السجود، ولا طمأنينة للنفس إلا في القرب من الله، ولا معنى للحياة إلا حين تُعاش له.

خلاصة وتأمل

الغاية من الوجود هي العبودية، والعبودية ليست عبثاً بل شرفاً؛ لأنها تُعيد الإنسان إلى فطرته الأولى وتجعله يسير في الكون في انسجام مع نفسه وخالقه. فمن عرف الله أحبه، ومن أحبه عبده، ومن عبده سعد به في الدنيا والآخرة: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (النور: 52). فهنيئاً لمن أدرك الغاية وسار على الطريق الذي خلق له؛ يعبد الله حباً لا مجرد خوف، ويقف بين يديه شاكرًا لا ساخطًا؛ فذلك هو الحر الحقيقي، وذلك هو كمال الإنسان.

الفصل الثامن

القضاء والقدر وسنن الله في الخلق

مسألة القدر: من أكثر المفاهيم التي شغلت الإنسان عبر العصور كيف يُقاد الإنسان بين حرّيته ومشِيئَةِ رَبِّهِ؟ وأين يقف دوره بين ما يختار وما يُقدَّر عليه؟

أسئلة عميقة تتكرّر في عقول الناس منذ فجر التاريخ، وتتنوّع الإجابات بين من يرى القدر قيّدًا يسلب الإنسان مسؤوليته، ومن يراه بابًا للعدل الإلهي الذي لا يظلم مثقال ذرّة

لكنّ القرآن يضع الميزان الدقيق الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، فيُثبِت للعبد إرادته واختياره، ويُثبِت لله المشيئة المطلقة التي لا يخرج عنها شيء في الكون
قال تعالى:
(وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) (الإنسان: 30)

معنى القضاء والقدر .

القضاء هو الحكم الكونيّ أو الشرعيّ الذي قدّره الله على الأشياء، والقدر هو وقوع هذا الحكم في الزمن والمكان الذي يشاءه الله

فكل ما يجري في هذا الكون من صغيرٍ أو كبيرٍ داخل في علم الله، لا يغيّب عنه شيء، كما قال تعالى:
(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر: 49)

ومع ذلك، لم يُكفّفنا الله أن نعلم الغيب، بل أن نؤمن أن أقداره كلّها لحكمةٍ ورحمةٍ وعدلٍ لا يحيط بها العقل

الجمع بين المشيئة الإلهية واختيار الإنسان .

يخطئ من يظن أن القدر يسلب الإنسان حرّيته، فالله قدّر عليه أن يختار، وأعطاه عقلًا وضميرًا وسبيلًا بيّنًا بين الهدى والضلال

قال تعالى:
(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) (البلد: 10)
أي طريق الخير وطريق الشرّ

فإرادة الإنسان تقع تحت مشيئة الله، لكنها ليست معدومة ولا مسلوّبة، بل موجهة بسنن الله في الخلق والاختيار
ولهذا قال تعالى:
(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (الإنسان: 3)

فإنه يهدي من يشاء، ولكن هدايته ليست اعتباطاً، بل جزاءً على طلب الصدق والإخلاص، كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد: 17)

سنن الله في الخلق .

السنن الإلهية هي القوانين الثابتة التي أجراها الله في الكون والحياة والإنسان .
هي النظام الذي به تستقيم الأسباب والمسببات، فلا يُنال الخير إلا بأسبابه، ولا يُدرك النصر إلا بعد الأخذ بوسائله .

قال تعالى:

﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: 43)

فإنه لم يخلق الكون عبثاً، بل جعله يقوم على قوانين محكمة تحفظ التوازن بين الأسباب والمشية، فمن أخذ بالأسباب نال نتائجها بإذن الله، ومن تركها بحجة الإيمان بالقدر فقد جهل السنن التي أمر الله بها .

الإيمان بالقدر لا يعني الاستسلام .

الإيمان بالقدر ليس ذريعةً للكسل، بل دافعٌ للعمل والاجتهاد مع التسليم لله .
فالمؤمن يعلم أن الله قدر النتائج، لكنه أمره بالأخذ بالأسباب

قال النبي ﷺ:

" احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز "

فمن ظن أن القدر يبزر تقصيره، فقد جهل أن الله لا يظلم أحداً، وأن القدر سرٌّ لا يُحتج به على المعصية، بل يُستدل به على النعمة بعد وقوعها .

بين البلاء والاختيار .

كثير من الناس يخلطون بين القدر الذي لا يُختار، كالمرض والموت، وبين الأعمال التي نحاسب عليها، كالظلم والكفر والمعصية .

فالابتلاءات تُظهر صدق الإيمان، لكن المعاصي تُظهر ضعف الإرادة .

ولهذا قال تعالى:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء: 79)

فما كان خارج إرادتك فالله يبتليك به لحكمة، وما كان بفعلك فاحذر أن تبرره بالقدر، فالله أعطاك عقلاً وقلباً وحرية اختياراً لتبتي بها .

سرّ الطمأنينة في الإيمان بالقدر .

حين يؤمن العبد أن كل ما يجري عليه بعلم الله، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، يستريح قلبه من التعلق بالمخلوقين .

قال تعالى:
(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۗ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) (الحديد: 22-23)

فهذه الآية تُعَلِّمُ الْمُؤْمِنَ التَّوَازِنَ النَّفْسِيَّ الْعَجِيبَ: لَا يُسْحَقُ بِالْحُزْنِ وَلَا يُعْتَرَّ بِالْفَرْحِ، لِأَنَّ قَلْبَهُ مَعْلُوقٌ بِاللَّهِ، لَا بِالْأَسْبَابِ

خلاصة وتأمل .

القضاء والقدر ليسا لغزاً يُخِيفُ، بل سرٌّ يُطْمَئِنُّ الْقَلْبُ حِينَ يُفْهَمُ عَلَى ضَوْءِ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ

فَاللَّهُ عَدْلٌ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، وَحَكِيمٌ لَا يَخْلُقُ عَبَثًا، وَرَحِيمٌ لَا يَقْدِرُ شَرًّا مُحْضًا عَلَى عِبَادِهِ

فَالْإِيمَانُ بِالْقَدْرِ لَيْسَ اسْتِسْلَامًا، بَلْ يَقِينٌ بِأَنَّ وَرَاءَ كُلِّ شَيْءٍ حِكْمَةً، وَأَنَّ يَدَ اللَّهِ تَعْمَلُ فِي الْخَفَاءِ كَمَا تَعْمَلُ فِي الْعَلَنِ

وَمَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ فِي قَضَائِهِ، نَالَ رَاحَةَ الْقَلْبِ وَطَمَآنِينَةَ الرُّوحِ، وَفَهِمَ سِرَّ قَوْلِهِ تَعَالَى:
(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر: 49)

الفصل التاسع

ختام وتأمل وجداني

بعد رحلة طويلة من البحث والتأمل بين المسلّمات واليقين، وبين النفس والعقل، وبين العلم والإيمان، يصل القلب إلى الحقيقة التي كان يبحث عنها منذ البداية: أنّ الحقّ واحد، وأنّ الطريق إليه هو الصدق مع الله. فالعقل وحده لا يكفي، والعاطفة وحدها لا تهدي، والمعرفة بلا إخلاص لا تثمر، ولكن حين يجتمع صدقُ النية مع نور الوحي وصفاء الفطرة، يتجلّى للإنسان معنى الحياة كما أرادها الله.

الإنسان بين السؤال والسكينة .

سؤال الوجود سيبقى رفيق الإنسان ما دام حيًّا، لكنّ الجواب الحقّ لن يجده في كتب الفلاسفة، ولا في تجارب العقول وحدها، بل في كلمتين اختصر بهما القرآن رحلة الوعي كلّها: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) (محمد: 19). فالعلم بالله هو غاية العلوم، ومن عرف الله، سكنت روحه وإن اضطرب العالم من حوله، لأنّه وجد المعنى الذي يفوق كلّ معنى.

حين يتواضع العقل أمام الوحي .

العقل الصحيح لا يناقض الوحي، بل يخضع له كما يخضع المتعلّم لأستاذه، ويجد فيه النور الذي يكمل بصره المحدود. ومن أعجب ما في القرآن أنه لا يطلب من الإنسان أن يُلغي عقله، بل أن يُحسين استخدامه في ضوء الهداية، قال تعالى: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد: 24). فالعقل الذي يسير على بصيرة من الوحي، يصل إلى يقين لا يترزع، ويكتشف أن الإيمان ليس ضدّ التفكير، بل هو قمته ونهايته.

من المعرفة إلى العبودية .

حين يعرف الإنسان ربّه حقًّا، يُدرك أن الغاية ليست المعرفة ذاتها، بل ما تُثمره من خضوع ومحبة وعبادة. فالعلم الذي لا يورث خشيةً، كالسحاب الذي لا يُمطر. قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر: 28). فكلّ معرفة لا تقود إلى الله، هي معرفة ناقصة، وكلّ علم لا يزيدك تواضعًا، فهو حجابٌ جديدٌ على بصيرتك.

رحلة العقل الباحث عن الحق .

لقد كانت هذه الرحلة محاولة لفهم الطريق إلى الله بعين تری، وقلب يتدبّر، لتكون المعرفة جسرًا إلى الإيمان، لا بديلاً عنه. تبدأ الرحلة من المسلّمات العقلية، ثم تمرّ بمرحلة الشكّ المنهجيّ واليقين، ثم تتأمل في النفس وكيف تتشكّل المرجعية والفهم، ثم توازن بين العقل والوحي في ضوء النسبية، ثم تنتهي بمعرفة الله والغاية من الخلق وسنن القدر. إنها ليست رحلة كتب أو فلسفات، بل رحلة قلبٍ أراد أن يفهم، فأخذ بيد عقله وسار مع الوحي، حتى اطمأن أن الحقّ في كتاب الله لا في جدل الناس.

الختام: حين يلتقي العقل والإيمان .

الإيمان بلا عقلٍ سذاجة، والعقل بلا إيمانٍ تيه. فإذا التقيا في قلبٍ صادق، أنار الله بصيرته، وأراه من حقائق الوجود ما لم يكن يخطر بباله. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: 53). وهذه هي النهاية الحقيقية للرحلة: أن يرى الإنسان في كل شيءٍ حوله أثر الله، وفي كلِّ حدثٍ حكمةً، وفي كلِّ ألمٍ رسالةً، وفي كلِّ نفسٍ آيةً من آياته.

تأمل ختامي .

يا من تبحث عن اليقين، اعلم أنّ الطريق ليس في كثرة الجدال، بل في صدق التوجّه إلى الله. قف بين يديه كما وقف إبراهيم عليه السلام، وقل: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾، فيجيبك ربك كما أجابه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالِ بَلَىٰ وَلَكِنْ لَّيَطْمَئِنُّنَّ قُلُوبِي﴾ (البقرة: 260). فاطلب الطمأنينة لا الجدل، واطلب النور لا الغلبة، واطلب وجه الله لا وجه الناس، فحينها فقط ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ﴾. إلى الله: ستدرك أن الرحلة لم تكن بحثًا عن إجابة، بقدر ما كانت عودةً إلى الأصل. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (هود: 123)

المراجع

المراجع الشرعية .

- القرآن الكريم وكتب السنة الصحيحة (البخاري، مسلم)
- الطبري، ابن كثير، السعدي، ابن عاشور التحرير والتنوير: تفاسير
- درء تعارض العقل والنقل، – ابن تيمية: كتب العقيدة والسلوك
- مدارج السالكين، الداء والدواء، مفتاح دار السعادة – ابن القيم
- للغزالي – إحياء علوم الدين

المراجع الفكرية والعلمية .

- في المنطق والعقل والعلم – أرسطو، ديكارت، كانت، آينشتاين
- الإنسان يبحث عن معنى – فيكتور فرانكل
- دراسات في المنهج العلمي، التفكير النقدي، علم النفس والسلوك الإنساني

المراجع المعاصرة .

- دروس ومقالات محمد متولي الشعراوي، وليد السعدي، نعمان علي خان، راغب السرجاني وآخرين
- تأملات ومناقشات من مشروع خواطر في زمن الفتن.. بحثًا عن الحق بإشراف حسين مجلي

تنويه .

هذا الكتاب ليس بحثًا أكاديميًا، بل رحلة فكرية ووجدانية تجمع بين نور الوحي ومنهج العقل، بحثًا عن الحقيقة التي تهدي القلب وتطمئن العقل